الماغوط و العجيلي قامتان سوريتان رحلتا معاً

عبد السلام العجيلي... أديباً وطبيباً بعجينة فراتيّة

عامر فؤاد عامر

شاعر الرقة صاحب النفحة الفراتيّة، وابن البيئة المؤسسة للحضارة وانطلاقتها الأولى، الأديب عبد السلام العجيلي المولود في مدينة الرقة ١٩١٨، نتطلع في ذكرى وفاته لما غرسه فينا من حبّ الوطن، وإبداع في الأدب، وميزات أخرى كثيرة، منها الإخلاص في عمله في ميداني الطب والسياسة أيضاً، توفي في الخامس من نيسان عام ٢٠٠٦، لكن ذكراه تبقى محفورة في ذاكرتنا كمبدع، ووطني، وعلم من أعلام المنطقة الشماليّة في وطننا.

أديب مؤسس

نستذكر بعضاً من النقاط المميزة في سيرته فلا ننسى أنّه يعدّ من الأدباء المؤسسين في ميدان القصّة القصيرة، على الرغم من بدايته كشاعر وتجربته في الشعر إلا أنه وجد نفسه وأثر فيما بعد الاهتمام أكثر في كتابة القصّة والقصة القصيرة على وجه الخصوص، فكان من السباقين في هذا الجنس الأدبي، وأصدر عدّة مجموعات منها نذكر:

أولى مجموعاته القصصية التي كانت في العام ١٩٤٨ وحملت عنوان «بنت الساحرة».

ونذكر أيضاً «الحب والنفس» في العام ١٩٥٩ ومجموعة «فارس مدينة القنطرة» في العام ١٩٧١ ومجموعة «أزاهير تشرين المدماة» في العام ١٩٧٤، وفي الفترة الحديثة من كتابته جاء بمجموعة «أحاديث الطبيب» في العام ١٩٩٧ و«مجهولة على الطريق» في العام ١٩٩٧.

صديق

من أجمل الصفات التي تميّز بها أنّه صديق جميع الأدباء فنراه مع «نديم محمد» ومن عاصره، ومع «نزار قباني» ومن كان في زمانه، وجميع الأدباء بعده وصولاً إلى زمن «أدونيس» فهو صديق حقيقي للجميع.

طبيب حقيقي

«عبد السلام العجيلي» درس في مدارس الرقة وحلب وفي جامعة دمشق وتخرج فيها طبيباً عام ١٩٤٥، ولا ننسى أنه كان يزاول مهنة الطبّ ويعالج الناس من دون أجور التطبيب، والكشفية، فقد كان يعترف بأن وضعه المادي يسمح له بالقيام بمثل هذه الخطوة، ولا داعي لاعتبارها مهنة للتجارة وجمع المال، بل هي مهنة قريبة من المعنى الإنساني وليس المادي.

رقاوي فراتي

من الصفات التي تميّز هذه الشخصيّة اللافته أيضاً هي خصوصيّة الفرات فيه كإنسان وأديب، وبيئة الرقة المغروسة في دمه، وذلك النهر فيه المكوّن لاستقرارها الحضاري، فهو معجون بهذه الطبيعة البريّة، فنرى رائحة الفرات في «العجيلي»، وفي أعماله، وصوته، وطريقة تعبيره عن نفسه، وتواضعه، وأدبه، وكلّ ما يتعلق بشخصيته الأدبيّة والإنسانية على وجه العموم.

مغامر من مدينته الأمّ

من النقاط البارزة عبر مسيرة الأديب «عبد السلام العجيلي» هي أنه أثبت نفسه من مدينته الأمّ «الرقة» ولم يحتج للهجرة إلى العاصمة «دمشق» وإثبات نفسه فيها، أو الابتداء بمغامرته الأدبيّة منها، بل كانت انطلاقته من الرقة، وعرفته سورية والوطن العربي من هذه المدينة التي ولد ونشأ فيها، وهذه القاعدة لا نجد لها تطبيقاً في يومنا هذا إلا بصعوبة وبندرة!.

٣٣ عملاً

وبصورة عامة يمكن القول باختصار إن الأديب «العجيلي» كان مميزاً في كتابة القصة القصيرة، ومبدعاً في تفاصيلها، أكثر من كتابة الشعر، والرواية، والقصة الطويلة. وقد نقل البيئة الفراتيّة عبر كلّ ما أنتجه. وقد بلغ عدد أعماله بالمجمل ثلاثة وثلاثين كتاباً، ولا ننسى أنّه كتب في المقالة أيضاً، وفي تصنيف ما كتب يمكن الإشارة إلى أن المدرسة الواقعية في أعماله هي الأكثر بروزاً. كما في رواية «باسمة بين الدموع» التي أصدرها في العام ١٩٥٨، ومجموعة المقالات «في كل واد عصا» الصادرة في العام ١٩٨٤.

في السياسة

ولا يسعنا إلا ذكر شيء من تاريخ نضاله السياسي فقد كان منتخباً كنائب عن محافظة الرقة في العام ١٩٤٧، وهو من الشبان الذين انخرطوا في جيش الإنقاذ عام ١٩٤٨ في الحرب ضد المستعمر الصهيوني، كما تولى عدداً من المناصب الوزاريّة في وزارات «الثقافة» و«الخارجيّة» و«الإعلام» في العام ١٩٦٢.

محمد الماغوط: أيها النساجون أريد كفناً واسعاً لأحلامي

وائل العدس

في الثالث من نيسان، حلت ذكرى غياب مبدع عاش يكتب ويدخن ويبكي ويتسكع ويثور على «غرفة بملايين الجدران»، حتى ترك وشماً شديد البروز على ملامح القصيدة المعاصرة، إذ استطاع هو ورفاقه من المؤسسين لقصيدة النثر تغيير الحالة الشعرية العربية، وإشعال حرائق لم تهدأ حتى اليوم.. إنه صاحب «حزن في ضوء القمر»، و«الفرح ليس مهنتي».

ولد محمد الماغوط عام ١٩٣٤ في مدينة سلمية التابعة لمحافظة حماة، ونشأ في عائلة شديدة الفقر، درس بادئ الأمر في الكتّاب ثم انتسب إلى المدرسة الزراعية في سلمية حيث أتم دراسته الإعداديـة وانتقل بعدها إلى دمشق ليدرس في الثانوية الزراعية في ثانوية خرابو بالغوطة ولم يكمل دراسته فعاد إلى سلمية وعمل كفلاح وبدأت بوادر موهبته الشعرية بالظهور فنشر قصيدة بعنوان (غادة يافا) في مجلة الآداب البيروتية ثم قام بخدمته في الجيش حيث كانت أولى قصائده النثرية بعنوان (لاجئة بين الرمال) التي نشرت في مجلة الجندي عام ١٩٥١م وبعد إنهاء خدمته العسكرية استقر الماغوط في مدينته لفترة زمنية ثم بعد ذلك ذهب إلى بيروت وانضم إلى مجلة (شعر).

القصيدة الأولى

القصيدة الأولى نشرها وذيلها بمحمد الماغوط، دكتور زراعـة، وليس مجرد الطالب، وبالفعل نشرت كما هي، وكأن البدايات تعلن عن سخرية ومفارقة ستظل تلازم الماغوط: «هكذا خلقني الله سفينة وعاصفة.. غابة وحطاباً.. زنجياً بمختلف الألوان وكالشفق، كالريح، في دمي رقصة الفالس.. وفي عظامي عويل كربلاء.. وما من قوة في العالم.. ترغمني على محبة ما لا أحب.. وكراهية ما لا أكره.. مادام هناك تبغ وثقاب وشوارع.

بودلير أم رامبو؟

في مرحلة ما من حياته المتقلبة الفصول كان الماغوط، غريباً ووحيداً في بيروت، وعندما قدمه أدونيس في أحد اجتماعات مجلة (شعر) المكتظة بالوافدين، وقرأ له بعض نتاجه الجديد الغريب بصوت رخيم من دون أن يعلن عن اسمه، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير؟) أم (رامبو؟)، لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إلى شاب مجهول، غير أنيق، أشعث الشاعر وقال (هو الشاعر).

فنون متعددة

الحجر الإبداعي الأضخم الذي ألقاه الماغوط في السكون العربي كان الإسهام في حالة قصيدة النثر، إلا أنه لم يكن الوحيد، إذ كانت للراحل إسهامات في فنون عدة، فكانت له كلمته في السينما، مثل فيلم «الحدود» الذي قام ببطولته الفنان السوري دريد لحام، والذي أنتج عام ١٩٨٢، وكذلك فيلم «التقرير» والاثنان من بطولة دريد لحام ورغدة.

وفي المسرح كتب «كاسك يا وطن»، و«المهرج»، و«ضيعة تشرين»، و«غربة»، و«شقائق النعمان»، و«خارج السرب»، و«العصفور الأحدب».

ومن مسلسلاته التلفزيونية «حكايا الليل»، و«وين الغلط»، و«وادي المسك»، إضافة إلى مئات المقالات والخواطر التي كتبها على امتداد مسيرته الطويلة مع الصحافة والسياسة والإبداع. إلا أن اللافت أن الماغوط كان يعتبر أن كل ما يقدمه هو شعر، وأن قصيدة النثر كامنة في كل ما يكتب، شاء من شاء وأبى من أبى، إذ لم يكن مهموماً بالتصنيف، أو البحث عن تأصيل لما يكتب من أحد.

تكريمات

تكريمات بالجملة نالها الماغوط أهمها صدور مرسوم بمنحه وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة من السيد الرئيس بشار الأسد.

وإضافة إلى ذلك نال جائزة جريدة النهار اللبنانية لقصيدة النثر عن ديوانه الأول عام ١٩٦١، جائزة سلطان بن علي العويس الثقافي للشعر عام ٢٠٠٥.

ومـازال تكريمه متواصلاً حتى بعد وفاته، إذ مـازالـت قصائده شديدة العذوبة والقسوة، تجتذب كثيرين، ويراها قراء حالة شعرية خاصة، تتمرد على تراث طويل ساكن.. قصائد لا تشبه إلا صاحبها، تحمل لغة حية لها قيمها وموسيقاها وصورها وصخبها.

الوداع

في ظهيرة يوم الإثنين ٣ نيسان عام ٢٠٠٦ رحل محمد الماغوط عن عمر يناهز ٧٢ عاماً بعد صراع امتد لأكثر من عشر سنوات مع الأدوية والأمراض عندما توقف قلبه عن الخفقان وهو يجري مكالمة هاتفية.

من أقواله

- أيها النساجون أريد كفنا واسعا لأحلامي.
- طوال عمري وأنا خائف من الله ثم اكتشفت أن الله هو ملاذي.
- أحببت وكرهت، فرحت فحزنت، ضحكت فبكيت، ولكني رغم كل الألم عشت، وهذه خلاصة دنياي مع تجاربي.
- يبدو أن تحرير العقل العربي أصعب من تحرير فلسطين.
- مراقبة الألم من وراء الزجاج شيء مضحك.. كالأطرش الذي يسمع موسيقا.
- العرب كطائرة الهليكوبتر ضجيجها أكثر من سرعتها.
- من أنتم؟ نحن العرب.. ماذا تشتغلون؟ نحن لا نشتغل، العالم يشتغل بنا.
- وحدهم الفقراء يستيقظون مبكرين قبل الجميع حتى لا يسبقهم إلى العذاب أحد.
- المبدع كالنهر الجاري متى استقر تعفن.

رد على «ع الطالع والنازل»

ما يأخذه الصحفي وما يقتطع منه

السيد رئيس تحرير صحيفة «الوطن» المحترم
تحية عربية.

نشرت صحيفتكم في العدد /٢٣٦٤/ تاريخ ٢٩/٣/٢٠١٦ وفي زاوية (ع الطالع والنازل) وبعنوان: «حكايات الإعلام تهز البدن» وفي نهاية زاوية أسرار وردت عدة جمل تغمز من الاقتطاعات التي يقوم بها اتحاد الصحفيين عند التقاعد وما يعود منها للصحفيين وأن هناك من يقول الفروق كبيرة. ولماذا؟

نعم إن الفروق كبيرة بين ما يقتطع من الزميل وما يمنح له. لكن لمصلحة الزميل وليس بالاتجاه الآخر، وإليك المثال التالي: منذ تأسيس الاتحاد حتى الآن لم يتجاوز الاقتطاع عن أي زميل طوال خدمته المهنية /٣٠٠/ ألف ليرة سورية وهذا المبلغ يستعيده الزميل الصحفي بعد تقاعده بأقل من أربع سنوات وإذا افترضنا أن متوسط العمر بعد التقاعد /فوق ١٥/ سنة أطال الله في أعمار الجميع... فإن ما يدفعه الاتحاد للزملاء في هذه السنوات يتجاوز أربعة إلى خمسة أضعاف ما يتم اقتطاعه، وقد أجرينا حساباً لثلاثة زملاء لا على التعيين، الزميل الأول بلغت مدفوعاته /٢١٢/ ألف ليرة سورية عن ٣٤ سنة خدمة والزميل الثاني /٢٠٩/ آلاف ليرة سورية عن ٤٣ سنة خدمة، والزميل الثالث /٢٥٣/ ألف ليرة سورية عن ٢٨ سنة، وتقاعد على سن /٥٥/ سنة، بحساب بسيط تبين أن صندوق التقاعد يدفع للزميل أكثر من ستة أضعاف ما يقتطع منه عدا المساعدات الاجتماعية والأدوية للأمراض الدائمة.

أشكر اهتمام الكاتب وأتمنى أن يستوضح قبل النشر ولا يلقي الكلام جزافاً كي تكون معلوماته صحيحة. وإن مكتبنا مفتوح لاستقبال من يريد الاطلاع على الحقيقة.

رئيس اتحاد الصحفيين

راحلون.... عندما ترتبط تفاصيل حياتنا بشخص ما

هل نقدر على تجاوز ألم الفراق واستعادة التوازن؟

ديالا غنطوس

يحدث أن نربط حياتنا بشخص ما، نعشقه حتى النهاية ونكمل حياتنا إلى جانبه، نبني أحلاما معه، نتكىء على كتفه في صعابنا، نضحك ونحزن معاً، نبوح بكل مكنوناتنا بحضوره، وفي غيابه نطالع الصور التي جمعتنا، بشريط حياة يعبق بتفاصيل لا تنتهي، باختصار، شخص يكون عالمنا وحياتنا لا تسير إلا بوجوده، هكذا نعتقد ونكرر أن الحياة من دونه لا تعني شيئاً بالنسبة لنا، ويحصل أن نفقد هذا العالم في غفلة من الزمان، قدر يخطفه بعيداً عنا إلى مكان لا نستطيع الذهاب إليه، هو قدر وليس خياراً، عندما يغيب الموت أحبتنا وليس بوسعنا سوى الصلاة لهم والحزن على غيابهم، قد تتعثر خطواتنا من دونهم ونهيم في عالم كانوا يسيرونه من دون أن نعلم، وقد نتمالك أنفسنا ونستلم دفة السفينة بعد أن رحل القبطان، متجملين بنعمة النسيان...

إن كانت الذاكرة أحسن خادم للعقل، فالنسيان أحسن خادم للقلب.. كثيرة هي الأمثال الشعبية التي تحدثنا وتحثنا على النسيان عقب الفراق، وعلى الرغم من ندرة قصص الوفاء والإخلاص لذكرى من رحلوا، إلا أن التاريخ دوّن في طياته عدداً لا يستهان به من الروايات حول أناس عاهدوا شركاءهم وصدقوا، وهذا ما تطالعنا به قصة من أرض الواقع كان بطلها الأرجنتيني «روكي» الذي جمعته الدروب بالفتاة التي سلبت لبّه بجمالها «جوليتا»، كانت البداية حين التقيا مصادفة عام ١٩٣٧ في أحد مقاهي مدينة بوينس آيرس الأرجنتينية، لم يحتج الأمر سوى نظرة وبضع كلمات كان قد سمعها خلسة أثناء محادثتها مع صديقتها على طاولة مجاورة عبرت فيها عن أفكارها وإنسانيتها، كانت كافية لكي يتيقن روكي بأن تلك الفتاة هي من بحث عنها طوال حياته وأنها توءم روحه المنتظر والشخص المناسب ليمضي معها القادم من العمر، وهو ما شعرت به جوليتا بدورها تجاه روكي الذي لم يتردد بإخبارها تواً بالمشاعر التي تملكته تجاهها، وسرعان ما تكللت علاقتهما بالزواج الذي زاد من بريق حبهما الذي كانا يريبانه كما الطفل الصغير الذي كبر ونضج سنة تلو الأخرى، إلى أن وصلت الرحلة إلى آخر محطاتها برحيل جوليتا عام ١٩٩٣ بعد ٥٥ عاماً ازدهرت بالألفة والوئام والغرام، وفرّغ المنزل على روكي لكن خافقه لم يفرغ من حبها، ولم تسأم روحه تتبعها، زهد روكي في كل شيء سواها وهجر ما تبقى له بعدها واعتنق ذكراها وكأن الزمن توقف به في آخر لحظة أمضياها معاً، فاتخذ روكي قراره بملازمة قبر حبيبته الذي لا يبعد عن منزله سوى بضع دقائق، ليكون الزائر الأول الذي يدخل المقبرة كل صباح ليلقي على حبيبته التحية قائلاً «أهلا حبيبتي.. أنا هنا»، يمضي يومه بجوارها حتى يحين المساء وتغلق المقبرة أبوابها خلفه.

كان همه الوحيد ألا يشعرها بالوحدة والضجر ولم يحُل بين ذلك العجوز التسعيني الواهن وبين مبتغاه أي ظرف أو سوء طقس أو مرض، واظب روكي على جلب الهدايا والاحتفال في ذكرى زواجهما كما باقي المناسبات، وكان يروي قصته ويسرد تفاصيلها لجميع زوار المقبرة ممن انتابهم الفضول من وجوده الدائم فيها، عشرون عاماً أمضاها على هذا الحال، إلى أن وصلت قصته إلى نهايتها عام ٢٠١٣، بعد أن أنهكه المرض وغاب مكرهاً عن مرقد زوجته شهراً كاملاً، ليعود إليه مقيماً وليس زائراً محققاً بذلك مرتجاه بأن يبقى ملازماً جسداً وروحاً لحبيبته الأزلية.

لكن مع كل ما نكنّه من إجلال لمواقف من قرروا اعتزال الحياة ومتاعها والتنسك بغياب أحبائهم، إلا أنه يجب علينا بالمقابل تقديم كل الثناء لمن تمكنوا من استجماع قواهم بعد وهن نتيجة ما ألمّ بهم من حزن لفقدان الحبيب، وصمموا على الاستمرار في ممارسة دورهم الذي مازالوا أحياء لأدائه، وقد قدمت لنا السينما العالمية العديد من تلك الأمثلة، أذكر من تلك الأفلام ما قدمه المخرج ألكساندر بن عام ٢٠٠٢ واسمه «عن شميدت About Schmidt»، وأبدع في

من فيلم «About Schmidt»

أداء دور البطولة الممثل العريق جاك نيكلسون الذي جسّد دور موظف بسيط ناجح في عمله، لكنه نزق الطباع، يصاب بالإحباط حين تنقلب حياته بعد أن وصل إلى سن التقاعد، يمضي وقته في المنزل متذمراً وآسفاً على نفسه من هذا الوضع المزري الذي يعيشه بعد ترك العمل، تحاول زوجته هيلين أن تخفف عنه قدر المستطاع فتقترح عليه أن يشتري مقطورة تمكنهما من السفر عبر الولايات لعل ذلك يعدل من مزاجه بعض الشيء ريثما يتعود نمط حياته الجديدة، لكن لسوء حظه فإن زوجته تفارق الحياة بشكل مفاجئ تاركة إياه وحيداً بغياب ابنته التي تتحضر لزفافها من شاب لا ينال رضا والدها، تنقضي مراسم الجنازة فيجد شميدت نفسه يمكث في المنزل وحده للمرة الأولى بعد زواج دام ٤٢ عاماً، أسير أفكاره المتناقضة يصارع شعوره بالعجز بعد أن اكتشف متأخراً أنه لم يفعل أي شي مختلف ذي جدوى طوال حياته، يستذكر زوجته فيتجول في غرفتها متفقداً أشياءها ومستحضرات التجميل التي كانت تستخدمها، يتفحص أدوات المكياج، ويفتح خزانتها لرؤية ملابسها فتقع يده على إحدى علب الأحذية، يفتحها ويجد بداخلها رسائل عاطفية مرسلة من أحدهم إليها وتحمل توقيع هذا الشخص، ونتيجة للصدمة من خيانتها له تجتاحه ثورة غضب فيحزم أشياءها في صناديق كبيرة ويرميها في القمامة، ويتجه لمواجهة الرجل صاحب الاسم الذي ذيلت به تلك الرسائل، يخبره بأن تلك العلاقة قد مضى عليها ما يقارب ٢٥ إلى ٣٠ عاماً، لكن ذلك لم يكن كافياً لإخماد نار الغضب التي تلتهمه، ما يخلق لديه ردة فعل تدفعه لتناسي وفاة زوجته، وكأنه سعي منه لإيجاد سبب يدفعه لعدم الأسف على رحيلها، وكأنه نال حريته من عبء كان ملقىً على ظهره، يستمتع بإهماله لنفسه ويجعل المنزل في حالة فوضى يرثى لها، ويشعر باللذة حين يبتاع المأكولات الرخيصة التي كانت تمنعها زوجته فيجلبها للمنزل بحرية الآن مستهدفاً إثارة حنقها ظناً منه بأنها تشاهده من مكان ما، يستمتع بالنوم على الأريكة أمام التلفاز، ويتفنن بتكويم الملابس القذرة المتناثرة بكل أرجاء المنزل، يبرد غضبه بمجرد انتهائه من القيام بكل تلك الأمور، ويراوده الشعور بالاشتياق إلى زوجته التي تمكن من إغاظتها بأفعاله الرعناء، هو ليس اشتياق العاشق لحبيبته، بل أشبه بحنين لشخص كان يختصر منزلاً يحمل ذكريات حياة كاملة بحلوها ومرّها، يستفيق شميدت من هفوته ونوبة الرعونة التي حلت به، ويبدأ التفكير بأن يفعل أي شيء ذي قيمة خلال المدة القصيرة التي بقيت له في مشوار حياته، بدءاً من قبوله مرغماً بزواج ابنته من الشاب البسيط الذي اختارته وتشعر بالسعادة معه، لتكتمل فرحته لاحقاً عندما تصله أخبار سارة عن نجاح طفل أفريقي قام سابقاً برعايته مالياً ومراسلته عبر أحد البرامج الخاصة بكفالة الأطفال في دول العالم الثالث، وهكذا يشعر شميدت بجدوى ما قدمه، وبقيمة الحياة التي مازال بإمكانه أن يعيشها وأن يقدم الكثير من الأعمال المفيدة خلالها، من دون أن تعيقه وحدته وعيشه عن أي أنيس يشاركه مسرات الحياة ومآسيها.

تمثيل!

غسان كامل ونّوس

من المستحيل أن يكون الناس جميعاً في مواقع القرار، أو أغلبيتهم، وأن يكون بإمكان الجميع التعبير عن آرائهم وأفكارهم واقتراحاتهم واعتراضاتهم وهمومهم، وإيصالها إلى حيث يجب أن تصل، أو يتمنّون ذلك؛ حتّى مع افتراض النوايا الحسنة والجهود الجادّة الحميدة؛ لذلك، فإن من الطبيعيّ أن يقوم أفراد منهم بهذا؛ عوضاً عن الجميع. وبقدر ما يكون هؤلاء أمناء على هذه المهمّة، صادقين متفهّمين قادرين على الاستيعاب والنقل، أو التمثّل؛ إذا ما كان الاقتناع متوافراً، وإذا ما كانت الحماسة قائمة، تكون الحال أفضل، ويحسّ الممثّلون أن لهم حضوراً وكياناً ورأياً وموقفاً، وأنّ وجودهم أكثر جدوى.

وليس سهلاً أو يسيراً تأمين ذلك، في كثير من الأحيان. وتقع المهمّة النبيلة المعقّدة هذه، أو المسؤوليّة في ذلك، على من يضع هذه الرسالة لدى هذا الفرد أو ذاك، تلك المجموعة أو هذه؛ وبشكل أوضح، على واضعي الآليّة التي توصل الممثّلين إلى المواقع، التي يُفترض أن يكونوا فيها؛ يقولون، ويعبّرون، وينشطون...

وهناك بديهيات في مثل هذه الحالات الاجتماعيّة، التي تعدّ آخر ما توصّل إليها التطوّر البشريّ في مساره المصيريّ، ومساعيه الاختياريّة، يضطرّ الكائن «العاقل» إلى عرضها، أو التذكير بها، أو التفكير في كيفيّة ممارستها بما هو أجدى وأرضى!

فإذا كان من يمثّلني ضعيفاً؛ بحجّة حاجته إلى العودة إليّ في كلّ شيء؛ فلا يعني ذلك أنني قويّ!

وإذا كان من يمثّلني شحيحاً؛ على أساس أنني أُلْقِمُهُ ما يُقيتُه؛ فلا يدلّ ذلك على أنني غنيّ!

وإذا ارتضيت أن يكون من يمثّلني فاسداً؛ ليظهرَ شرفي بمقارنته بي؛ فلستُ شريفاً ولا نظيفاً!

وإذا كان من يمثّلني جباناً، فاجراً، منافقاً، مهزوزاً، محتالاً... فلن أكون مقداماً، لبقاً، صدوقاً، متماسكاً، ملتزماً...

إنه صورتي التي تظهر في الأماكن، التي يحلّ فيها، وفي العمل الموكل إليه، وفي سلوكه، وفي الوقائع وأصدائها. وبقدر ما يكون تمثيله منطقياً، واقعياً، تكون حالنا أوضح، وأقرب إلى ما سينطبع في تصوّر الآخرين، ويستطيع هذا الممثّل «المناسب» أن «يبدع» في تمثيله لنا، بإخراج كثير ممّا في نفسه، ليعبر عنّا أكثر، ويزيدنا ألقاً على ألق، أو عكارة على عكارة!

المؤسف، أنّنا؛ وحرصاً منّا على أن يكون الممثّلون في قبضتنا، ومعبّرين عنّا خير تعبير؛ ومخافة أن «يتسلّل» إلى تلك المواقع بعض المصطادين في مثل هذه المعتركات، المُتقنين فنونها، الموجّهين لاستغلالها- نقوم نحن، وبكامل قوانا «العقليّة»، وبملء إرادتنا، وتجاربنا النضاليّة، وخبرتنا الاستقصائيّة، بما يؤمّن وصول من نريد بالتحديد والقياس إلى تلك المسؤوليّات؛ فننام قريري العيون هانئيها! من دون الاهتمام بأنّنا كثيراً ما نختار من لا يستحقّ، أو لا يحظى بالرضا العام، وليست لدى الأغلبية القناعة بأنّه يمثّلهم، أو سيكون الوجه المشرق لهم، والصوت الذي يتمنّون أن يصل!

وإذا ما عُدّ وصول بعض خللاً في الخيار؛ نتيجة خداع أو غموض أو غفلة؛ مع أن من المفترض عدم حدوثه؛ لأن الأمر ليس طارئاً أو مفاجئاً وعارضاً؛ بل هو متكرّر دوريّاً، ومواسمه معروفة وفصوله كذلك، ببيادرها ورياحها كلّها، وصقيعها وصحوها... مع ذلك، إن حدث مثل هذا؛ فمن غير المنطقيّ ولا المفهوم ولا المقبول أن يتكرّر الخيار الخاطئ، أو الاختيار الكارثيّ لأكثر من مرّة؛ فنكون حينئذ، إمّا غير قادرين على تجميع الوقائع، أو التصوّرات، أو الأفكار.. وقراءتها وتحليلها، أو غير مبالين بالعمل وضروراته، والواقع والتزاماته، والوطن ومقدّساته؛ وإن كان من يختارون، ليسوا أنفسهم؛ فالمنظومة هي نفسها، والنتيجة ذاتها!

أليس من المطلوب والضروريّ والمنطقيّ، أن تجري عمليّة تقويميّة في نهاية كلّ مرحلة، لنعرف مدى قيام هذا «الممثّل» بواجبه تجاهنا، وتجاه البلد، ومستوى أدائه المهمّة التي مارسها، ونقدّر الفائدة من إعادته إلى ذلك الدور، أو تكليف بدائل أفضل؟!

الأمر الآخر المهمّ في هذه النقطة، أنّنا نظلم هذا الشخص، ونظلم أنفسنا، ونضحك على ذقوننا، حين نعرف إمكانيّاته المحدودة، وطاقاته الشحيحة، وننتظر منه، أو نطلب القيام بالمعجزات! أم إنّنا لا نريد منه شيئاً ذا قيمة، سوى أن يكون حاضراً بجسده، وموافقته، وطاعته!

الكارثيّة في مثل هذه الأخطاء، التي لا نتعلّم منها، إذا ما كانت غير مقصودة، أن الزمن لا ينتظر، ولا يعبأ بعثراتنا، ولا يأبه بأخطائنا، والتاريخ لا يرحم، والمتطلّبات لا تنتهي؛ بل هي في ازدياد، وتعقيد، مع مؤثّرات عصريّة فاعلة، محرّضة، ومراقبة، وكاشفة، ومضلّلة، وطاعنة في القلب والظهر؛ فكيف تكون المواجهة؟! بالعَقليّة القديمة ذاتها، بالطريقة عينها، بالأدوات والعناصر والأرصدة، التي لم تعد تناسب، ولا تفيد، ولا تلبّي...؟! لا يكفي أن نتحدّث جيّداً، في كلّ مرّة، ونَعِد، ونعتذر، إذا لم يكن العكس هو ما يحصل؛ فلا ننظر إلى من تأذّى أو احتجّ أو انكفأ.. ولا نسأل عن السبب؛ حينئذ يكون التمثيل ليس لنا؛ بل علينا، وهؤلاء ليسوا رسلنا إلى حيث نرجو، ونأمل، أو نطلب، ونفرض؛ بل إلى العالم السفليّ؛ حيث المصير القاتم.

وعلى نفسها وأهلها جنت «براقش»!